نظرية رأس المال الثقافي
لبورديو

أهدافها:

- **تعريف الطالب بأهم القضايا التي طرحها كل من بياربورديووباسرون في اطار نظريتهم حول التعليم ورأس المال الثقافي.**
- **تعريف الطالب بأهم الانتقادات التي وجهت لهذه النظرية**

- التعليم ورأس المال الثقافي عند بيار بورديو:

فتحت الأزمة التي يعيشها المجتمع الرأسمالي وأزمة المدرسة الوظيفية الباب أمام ظهور نموذج إرشادي جديد، وهو مايعرف باسم نظرية رأس المال الثقافي الذي أسهم في تكوينه كل من بورديووباسيرون، وبرنشتين ومايكل أبل .

حيث سارى في إطار التوجه العام للتحليل الماركسي، يقوم بتحليل النظم التعليمية ،ودورها في إعادة الإنتاج الثقافي بالمجتمع، والذي يعتبر من الاتجاهات النظرية الحديثة في علم الاجتماع. أساسه بيار بورديو -والذي يعتبر من أبرز علماء الاجتماع والفلسفة، ولد عام 1930 في منطقة بيارن جنوب غرب فرنسا- وذلك من خلال القضايا التي طرحها، والتي اتضحت أكثر من خلال الدراسة التي قام بها، عن إعادة الإنتاج الثقافي والمجتمع والثقافة . محاولا وضع النظام التربوي ومؤسساته في إطارهم الطبيعي من بناء علاقات القوى . وهذا مشاركه فيه كلود باسيرون .

والمقولة الرئيسية (لبوردو وباسيرون) تزعم أن المؤسسات التربوية في كافة المجتمعات تسهم في توليد علاقات القوة الراهنة، وتعتبر عملية إعادة الإنتاج هذه

- ومن وجهة نظرتيهما – وظيفة لعمليتين .(أ) فرض معاني ثقافية بعينها والأدوات المستخدمة لفرض هذه المعاني .(ب) تحديد محتوى المعاني الثقافية ،والتوزيع المتبادل لها على الأفراد المختلفين والتي تحول المعرفة باعتبارها رأس مال ثقافي .

ولهذا تترجم عدم التكافؤ في القوة إلى عدم تكافؤ ثقافي.

ويقوم هذا النموذج على أساس فلسفتين: أولهما فكرة التناظر بشكل مباشر البنى الطبقية في المجتمع، وهذا التناظر هو الذي يفسر كيف أن المدرسة تعاود إنتاج "البناء الاجتماعي الطبقي" وثانيهما فكرة البنى الفوقية والبنى التحتية المستمدة من الفلسفة الماركسية. و في هذا الإطار يرى كل باولزوجنتس في كتابهما الصادر عام 1976 أن " بنية العلاقات الاجتماعية داخل المدرسة لاتضمن فقط التزام الطالب بقضية النظام وتقسيم العمل، ولكنها تطور أنواعا من الفهم الشخصي، وأنماطا من التمثيل الذاتي، وصورا للذات تتطابق مع النظام الطبقي في المجتمع، وكل ذلك يعتب من المكونات الأساسية للكفاية الوظيفية، وبالتحديد فإن العلاقات الاجتماعية داخل المدرسة- مثل العلاقة بين المدراء والمعلمين، والمعلمين والطلاب، والطلاب وبعضهم البعض، والطلاب وعملهم- هي صور مكررة للتقسيم التراتبي للعمل داخل .

ويرى بورديو أن النظريات الكلاسيكية لا تعبر عن الحقيقة لاعتبارها أن النظام التربوي مجموعة الأوليات المؤسسية أو العرفية التي يتم بواسطتها انتقال الإرث الثقافي من جبل إلى جيل " فيرى أنها تميل إلى فصل عملية معاودة الإنتاج الثقافي عن وظيفتها المعينة لمعاودة الإنتاج الاجتماعي أي إلى تجاهل ما للعلاقات الرمزية في سياق إنتاج علاقات القوى من أثر مخصوص" .

رغم تأثره في البداية بأحد روادها في تحليل النظام التعليمي الذي قدمه دوركهايم وركز فيه على الجوانب الحقيقية للثقافة السائدة وبأنها تنتقل لكل أعضاء المجتمع

بينما بورديو في هذا الجانب ركز اهتمامه أساساً بالكيفية التي عن طريقها يعاد إنتاج ثقافة المسيطر ورد على دوركهايم بأن هذه الثقافة لا تمثل ثقافة المجتمع بل ثقافة الطبقة المسيطرة، ويعتبر بورديو المدرسة أداة من الأدوات التي تستعملها هذه الطبقة لتمرير ثقافتها؛ فالظاهر أن المدرسة في المجتمع الرأسمالي من أهم وظائفها نقل المعارف والمعلومات للمتعلمين إلا أنها في حقيقة الأمر تعمل على دعم الصفوة الاجتماعية ومساندتها للحفاظ على مكانتها والحصول على القوة والمزيد من النفوذ والسيطرة بواسطة النجاح المدرسي.

هذا الأخير الذي يكون حليف أبنائها، بحكم تنشئتهم الاجتماعية، وما يمتلكونه من رصيد معرفي وافر وخبرات ومعايير وقيم خاصة بطبقتهم المسيطرة والتي يدعمها النظام التعليمي لذا فإن حظوظ أبناء الطبقات الدنيا أقل في التحصيل والنجاح المدرسي والوصول إلى مراكز أعلى في المجتمع من أبناء الطبقات العليا.

فينجح ابن الطبيب أن يكون طبيباً، وابن المحامي أن يصير محامياً وهكذا يرث كل طفل مهنة أبيه عبر المؤسسة التعليمية ذاتها ويتم بالتالي تكوين ما أسماه هذا المدخل بأرستقراطية مدرسية وراثية من كبار الموظفين والأطباء وحتى القادة السياسيين هذا ما يجعل التعليم ينجح كرس مال رمزي في المحافظة على الطبقات المهيمنة.

كما أن ارتباط المحتوى المعرفي بالمناهج الدراسية وكذا طرق التدريس السائدة في المدارس بثقافة الطبقات العليا زاد من تكريس هذه الحقيقة وأدى بدوره إلى فرز المتعلمين وتصنيفهم وفقاً لمرجعيتهم الثقافية.

ومن الواضح أن الآلية التي يستخدمها النظام التعليمي للقيام بوظيفته في الاختيار الاجتماعي وفي إضفاء الشرعية على الهرم الاجتماعي لا تكمن في محتوى المناهج فحسب بل تتمثل بدرجة أساسية في نمط التدريس وعلاقات الاتصال المدرسية". السائدة في بيئتها الداخلية والتي لها " بعد إيديولوجي حصري، أي هذا البعد المتمثل بتبعية الطفل البيولوجية الناتجة عن عجزه. يبقى أنه لا يمكننا إهمال المحددات الاجتماعية التي تعّين في جميع الحالات علاقات الراشد بالطفل بما فيها العلاقة. حيث يكون المربون هم الأهل بيولوجيون أنفسهم".

ورغم ما يبديه المربين من معاملة حسنة للمتعلمين إلا إن هذا حسب رأي بورديو لا يعني أن النشاط التربوي للمؤسسة التعليمية يخلو من العقاب والتفرقة بين التلاميذ حيث يقول " فإن تغمر المربيات الأمريكيات التلاميذ بالعاطفة باستخدامهن أسماء ونعوت الدلع والتحبب وباللجوء المستمر إلى التفهم المتعاطف...يعني أنهن يمتلكن هكذا أداة قمع مرهفة تتمثل بالعدول عن الملاطفة أو التعاطف، وهو ما لا يقل كتقنية تربوية تعسفاً عن أي قصاص جسدي أو تأنيب مهني ولئن كان من الصعب أن نلاحظ الحقيقة الموضوعية الخاصة بهذا الطراز من النشاط التربوي فلا التقنيات المستعملة تموّه.

ما للعلاقة التربوية السائدة في المؤسسة التعليمية من بعد اجتماعي تخفيه. ترجع أصوله إلى نسق تقنيات السلطة التي تفرض نمط معين من التفاعل التربوي".

كما يميل التلاميذ إلى إقامة علاقات مثال العلاقة مع الأب مع أي شخص يتمتع بالسلطة التربوية قوية إلى درجة أن أي شخص يتولى التعليم يعامل مهما كان شاباً بوصفه أباً.

كما يطرح بورديو قضية التماثل (التناظر) الذي يحدث في المدرسة كما أشرنا سابقا " مؤداه ما يجري في المدرسة من علاقات وتنظيمات بين الطلاب وبعضهم وبين المعلمين إنما يناظر ما يوجد في مواقع العمل أي تصبح المدرسة مؤسسة لإعداد ومقابلة احتياجات سوق العمل وهيكلته"

والنظام التعليمي عندما يقوم بذلك فإنه يخفي وظيفته الاجتماعية في شرعنة (إكساب الشرعية) الفروق الطبقية، تحت غطاء وظيفته التقنية في إنتاج المؤهلات وفي ذات السياق يرى بازل برنشين أن المعرفة المدرسية هي تمثيلات، تعكس مايدور خارج المدرسة من تفاعلات، فهي عبارة عن تمثيل تنظيمي تراتبي للغة التي تستخدمها الطبقات المختلفة، وبالتالي فإن علاقات القوة والسيطرة تصبح أمرا واقعا في عمليات التصنيف التي تولد، بالتالي صورا متمايزة للعلاقات الاجتماعية والاتصالية، وكذلك في تشكيل البنية الذهنية للفرد، وكذلك في قواعد تصنيف هذه المعرفة المدرسية والإيديولوجيا التي تعبر عنها، فالمعرفة المدرسية- على سبيل المثال- معرفة رسمية بينما المعرفة الخاصة بالفهم الطبيعي العام في الحياة اليومية معرفة محلية، ويقف كلاهما على طرف نقيض من الناحية الايديولوجية، فالأولى تصبح هي الوسيلة التي تفرض بها الجماعة المسيطرة نفسها على الجماعة الخاضعة، وتعمل على إسكات صوت هذه الجماعة واستبعاده، ومن ثم يتحول هذا الصوت المستبعد إلى صوت تربوي خانع، وكامن وغير معترف به .

ويذهب بودريللار إلى أبعد من ذلك، حيث يرى أن المدرسة لاتمارس العنف الرمزي أو العنف الثقافي فقط، بل تمارس أيضا الإرهاب التربوي، فبالنسبة له " كلنا إرهابيون، وهذه الفكرة تحل محل

الأفكار السابقة عن السادة والعبيد، وعن الطبقات المسيطرة والطبقات الخاضعة، وعن الطبقات المستغلة، والطبقات المستغلة(بفتح الغين)، لقد مضى عهد العبيد والبروليتارياوالاغتراب وجاء عهد الإرهاب، إنه عهد أسوأ من سابقه، ولكنه على الأقل يحررنا من جنون الليبرالية وإساءة استخدام التاريخ

ويعني هذا أن السؤال الذي ركزت عليه سوسيولوجيا التربية، في سنوات الستين، هو سؤال اللامساواة المدرسية التي تعكس اللامساواة الطبقية والاجتماعية، وتعكس مدى اختلاف أبناء الطبقات العمالية عن أبناء الطبقات المحظوظة، واختلاف المستوى التعليمي الطويل الذي يرتاده أبناء الطبقات المحظوظة، والتعليم القصير الذي يكون من حظ أبناء الطبقات الدنيا، ولاسيما أبناء الطبقات العمالية وأبناء المهاجرين على حد سواء. لذا، يغلب النقد الماركسي الجديد على هذه السوسيولوجيا الستينية. والدليل على ذلك الثورة العارمة التي اشتعل أوارها في سنة 1968م؛ بسبب المدرسة الرأسمالية التي كانت - فعلا- مدرسة طبقية بامتياز. ومن ثم، فقد كان الحل يتمثل في دمقرطة التعليم، وتحقيق المساواة الاجتماعية الشاملة، والحد من الفوارق الطبقية والمجتمعية، ومنع ممارسة العنف الرمزي ضد المتعلمين، وخلق مدرسة موحدة تحقق النجاح لجميع المتعلمين بدون تمييز أو انتقاء أو اصطفاء.

وعليه، يمكن اعتبار دراسات بورديو نقدا للدراسات الكلاسيكية حول سوسيولوجيا التربية؛ لأنها اعتمدت على المقاربة الماركسية النقدية الجديدة في دراسة المدرسة الفرنسية بصفة خاصة، والمدرسة الرأسمالية بصفة عامة، على أساس أن المدرسة فضاء للتنافس والهيمنة والصراع الطبقي والمجتمعي.

وعموما، فقد اتسمت أفكار بورديه بتحليل العلاقة المتبادلة بين امتلاك رأس مال جديد، إلا وهو رأس المال الثقافي وفى ملكية السلطة والنفوذ والثروة المادية والفكرية لأبناء الطبقات البرجوازية في المجتمع الرأسمالي، وهذا ما بينه من خلال أفكاره وآرائه حول إعادة الإنتاج الثقافي.

تقييم النظرية:

وفي الأخير رغم ما طرحه بورديو من قضايا في تحليله للنظام التعليمي وللمدرسة قد تكون له نسبة من الصدق في مجتمعات معينة، ونتيجة لخصوصية هذه المجتمعات وفلسفتها ومنطلقاتها الفكرية والإيديولوجية، إلا أنه أهمل الكثير من الجوانب المؤثرة في العملية التعليمية والضوابط التي تحكمها.

وهذا يعني أن المدارس تلعب دورا أساسيا في خلق مظاهر التفرقة واللامساواة داخلها وداخل المجتمع، وإقناعهم بأنه يتيح لهم فرص عادلة في التعلم والمنافسة، وفي التحصيل وزيادة معارفهم، وهذا ما ينطبق على النظام الاقتصادي.

وقد وجهت عديد من الانتقادات إلى رأس المال الثقافي أو إعادة الإنتاج باعتبارها نظرية مفرطة في التشاؤم، فهي تنظر إلى الناس كما لو كانوا عاجزين عن توجيه مصائرهم، وتتعامل معهم كما لو كانوا عاجزين عن توجيه مصائرهم، وتتعامل معهم كما لو كانوا دمى آلية عى مسرح حي، دمى مبرمجة عليها أدنى سيطرة، إن هذه النظرة تعتبر لونا من ألوان خطاب اليأس الحتمي .